قريتي..

الهدوء يلفُّ المكانَ من حولنا والقرية تتشبَّث بالجبل الشامخ ، تتعلَّق بجسده الكبير..

بيوتها القديمة تبدو للناظر ساكنةً لا حراكَ بها، وقد أخذ بعضها بنواصي بعض حتى لَيُخيَّلُ للناظر إليها أنَّها قد زادت التصاقاً وامتزاجاً عن ذي قبل، وكأنها تأْنسُ إلى بعضها هربًا من وَحْشةِ المدنيَّة الحديثة.

وإذا أنعمتَ النظر في بيوت القرية العتيقة رأيتَ من أمرها عجباً. بعضُها قائم على قديمه صامداً لم يتزعزع، وبعضها تقوَّستْ جدرانُه كما يتقوَّس ظهر العجوز الذي بلغ من الكبر عتيّا..

أزقَّة القرية توحي للناظر إليها بشيءٍ غريب.. وكأنها سراديبُ تؤدِّي إلى الموت، سبحان الله !! كأنها لم تكنْ ذاتَ يومٍ مأْنوسةً مليئةً بالغادين والرائحين.

أمـا مـزارع القـرية فـإنهـا تنظـر إلى الناس الذين يدوسونها بعرباتهم نَظْرَةَ البائس الحزين.

وقـفتُ أمـام بيتٍ شـامخٍ من بيـوت القـرية القـديمة.. وسـرَّحْت طـرفي في جنبـاتـه.. ودنوتُ منه .. وقـد خُيِّل إليَّ أنه يتحدَّثُ إليَّ.

كنت أشـعـر أنه ينظر إلى المبـاني الحـديثـة من حـوله نَظْرَةَ سـخـريةٍ واسـتهـزاء، ولو كان له لسـانٌ لقـال: انظرْ كيف يتنكَّر الإنسـان!!

وقـفت أمـام ذلك البـيت.. أحـجـاره المرصـوصـة بإتقـانٍ عجيب، بابه الخشبيُّ الضخم « المصراع» نوافذه الصغيرة.. بَهْوُهُ المستطيل « الجون» باحته الواسـعـة.. درجتـه المتميِّـزة المرصـوفـة من الحـجـارة رصـفـاً رائعـاً.. كلُّ ذلـك كـان بمثـابة سـجل حـافلٍ أقـرأ فـيـه حيـاة قـوم تـركـوا الدنيـا، وكـأنَّهم لم يعيشوا فيها لحظةً واحدة.

عـهـدي بهـذا البـيت الكبـيـر «المهـجـور» مليـئـاً بالرجـال الشـجـعان والنسـاءِ والأطفـال.. باحتـه كـانتْ مليئـةً بالأغـنام والبقر والجمال..

❖ صورة للمنزل الذي شهد النشأة والطفولة ❖

درجُـه الطويل لم يكن يفـرغ من صـاعـدٍ أو هابط.. نوافذه الصغيرة لم تكنْ تخلو من مُطلٍّ يرصد الأزقةَ من خلال شقوقها.. البهْوُ المستطيل «الجَونْ» لم يكن يخلو من الجالسين تُدار بينهم القهوة والشاي، ويذهبون في الحديث مذاهب شتَّى..

بابه الخشبيُّ الضخم « المصراع الكبير» لم يكنْ يخلو من داخل أو خارج.

وكم كنتُ أسعد برؤية « الجمل» وهو يدخل بحمله من خلال ذلك الباب وينوَّخ في باحة الدار.. ونتسابق نحن الأطفال لنعثر على حبةٍ من فاكهةٍ أو تمر.

ليس الوقت الذي أتذكَّره ببعيد.. بيننا وبينه الآن ما يقرب من عشرين عاماً كنتُ حينها في السابعة أو الثامنة من العمر، أو لعلِّي كنتُ بينهما وإلى الثامنة أقرب.

كنت أنظر إلى ذلك البيت الكبير. والذكريات تنثال عليَّ من يمينٍ وشمال ومن كلِّ ناحية، حتى خِلْتُ أني

أغوص منها في بحرٍ عميق، أو أنني أدخل منها في مثل الضباب..

لست أنسى أهل القرية عندما كانوا يجتمعون إذا عنَّ لهم أمر . ومتى كانوا يجتمعون؟!

بعد صلاة المغرب... ولماذا؟

لأنهم كانوا يسرحون إلى أوديتهم مع بزوغ فجر كلِّ يوم جديد.. فمنهم من يذهب إلى مزرعته.. ومنهم من يرعى غنمه ومنهم مَنْ يهبط إلى الأسواق البعيدة يبيع بعض ما لديه من حب أو فاكهةٍ أو خضار.

حركةٌ دائبة .. لا يُوقِفُها إلا دنوُّ الليل ولون الأصيل.

عندها .. ترى طرقات القريةِ تسيل بالرائحين، وتمتزج أصوات الناس بثُغاء الشاءِ ورغاء الجمال وزقزقة العصافير رائحةً إلى أوكارها.

كان التعاون شعار أهل القرية فيما يقومون به من أعمال .. الحرث .. الحصاد.. بناء المزارع والبيوت.. وإنَّ

من أقــربِ مــا يشــدُّني إلى ذكـره الآن « الطِّينة» ومــا هـي «الطِّينَة»؟

إنها تعني تسقيف البيت بالخشب ورصف الطين عليه .. وأيُّ خشبٍ يا ترى؟.. إنه خشب العرعر والطلح، واللَّوز، والزيتون البرِّي وكم كنا نسعد نحن الأطفال بيوم « الطينة» هذا.. ذلك، لأنَّنا كنا نشارك فيه الكبار في العمل.. وليس أحسن عند الطفل من اللَّعب بالطين..

سبحان الله !! ربما كان السبب في ذلك شعورًا داخلياً عند الإنسانِ بأصله، وميلاً فطرياً منه إلى ذلك الأصل.

كانت الأيدي العاملة في القرية محلّية.. الذين يبنون هم رجــال القــرية .. والذين يصنعــون الأبوابَ والنوافــذ وخشب السقوف و «المرازح» الأعمدة .. هم أهل القرية .

أمــا طلاء الأبواب بالقطران المســتخلَص من شــجــرٍ محلّي، وأمَّا طلاءُ الجدران من الداخل بالطين والتبن. وأمَّا تلوين الجــزء الأســفل من الجــدران بالبــرســيم الذي يُدَقُّ

ويُعجَن ويُصنَعُ منه مثل الدهان الأخضر، أما هذه الأعمال فإنَّ النساء هنَّ اللاتي كنَّ يَقُمْنَ بها .

نساء القرية لم يكنَّ عاطلاتٍ أبدًا . عمل المنزل.. الحياكة.. حَلْب الأبقار.. العمل في المزارع.. جَلْب الماء من الآبار على ظهورهنّ، كلُّ ذلك كنَّ يَقُمْنَ به خيرَ قيام.

كانت القرية مهرجاناً حافلاً بالعاملين والعاملات.. كلٌّ في مجاله المعهود.

وفي خضمِّ هذه الذكريات عاودتُ النظر إلى ذلك البيت الكبير فأحسستُ وكأنَّه يتحرَّك نحوي أَوْ أنَّ الأرض تزحف بي نحوه .

وشعرت كأنَّ لساناً قد امتدَّ له ..

فأخذ يحدِّثني عن إحساسهِ بما هو فيه .. عن وحشته بعد الأنس.. وعن هوانه بعد العزّ وعن هجر الأحبَّة له بعد الوصال.

لقد تمادى بي هذا الشعور حتى غدا في نفسي حقيقةً وما هو بحقيقة.. وواقعاً وما هو بواقع، وحتى أصختُ سمعي إلى ذلك البيتِ القديم أستزيده من الحديث..

ولو استطعتُ أنْ أجعل من الصمتِ زجاجةً مغلقة لوضعتُ كلَّ ضجّةٍ تُحْدثُها الوسائل الحديثة من حولي في تلك الزجاجة وأقفلتُ عليها حتى يتسنَّى لي أنْ أستمع إلى حديثِ الجماد في تلك اللحظة الرائعة..

أيتحدَّث الجماد؟! ربما .. إنَّ حديثَه لَشجيٌّ حزين .. يُشبه حَمْحَمَةَ الفَرَس الذي فقد فارسَه، وحنينَ الناقة التي فقدتْ فصيلَها، ولعلَّ حديث الجماد أشجى وأكثر إفصاحاً. إنه يتحدَّثُ بصمت وهل هنالك أفضل من حديث الصمت؟؟

بيُوت قريتنا القديمة تُجيد هذا النوع من الحديث الصامِت أو الصمتِ المتحدِّث.. تُجيد هذا النوع من الحزن المعبِّر، أو التعبير المحزن.

أرأيت إلى الكتاب الرائع عندما تنغمس بين سطوره فتشعر بزَمْرَمِة الحروف، وهَمْهَمَةِ الكلمات، وتظلُّ تُوغِلُ في ذلك الشعور حتَّى يُخَيَّلَ إليكَ أنَّ هذا الكتاب يحدِّثك بلسان عربي مبين.

إنْ كنتَ ممّن يذوب في الكتابِ هذا الذَّوبان.. فقفْ على بيوتٍ عتيقةٍ في قريةٍ من القرى واستمع إلى حديثها فستجد أنَّ لكلِّ حجرٍ فيها لساناً ينطق.

عفوًا ـ أيُّها القارئ الكريم ـ فقد رحلت بك بعيدًا بعيداً، وحملتُك إلى عالمٍ ربما أنك لا تجد فيه ما وجدتُ أنا من المتعةِ واللذَّة.

بأيِّ شيء أعتذر إليك؟ لا أدري ولكنْ.. لعلَّك لو جلستَ إلى نفسك تغرق من ماضيها في مثل ما غرقتُ فيه.. لوجدتَ من ذلك الماضي ما يجعلكَ لي عاذرًا.. وعليَّ مشفقاً رحيماً.